



لم يبن النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم دولة ومجـد الإسلام إلا بتوفيق وتسـديـد من الله تعالى، ولكنـا هنا لن نعرض للمظـاهر الغـيـبية لهذا التـوفـيق والـسدـاد، إنـما نعرض للمـظـاهر والأـسـبـاب المـادـية التي وفق الله نـبـيهـ صلى الله عليه وآلـه وسلم لـصـنـاعـة دـولـة وـمـجـدـ إـسـلامـ عـبـرـاـ.

في الـبـداـيـةـ كـانـتـ مـكـةـ، وـفـيـ الـبـداـيـةـ كـانـتـ دـعـوـتـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ سـرـيـةـ لـمـدـةـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ، حـتـىـ كـونـ نـوـاـةـ إـسـلامـ الـأـوـلـىـ بـعـدـهاـ سـارـتـ الدـعـوـةـ الـعـلـيـةـ مـسـارـهاـ عـشـرـ سـنـوـاتـ فـيـ مـكـةـ، خـالـلـهاـ لـمـ يـسـتـخـدـمـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ أـيـاـ مـظـاهـرـ اـسـتـعـمـالـ الـقـوـةـ فـيـ التـعـامـلـ مـعـ مـخـالـفـيـهـ، وـاسـتـخـدـمـ الصـبـرـ وـأـمـرـ الـمـسـلـمـيـنـ باـسـتـخـدـمـ الصـبـرـ كـدـرـعـ ضـدـ الـاضـطـهـادـ وـالـتعـذـيبـ الـذـيـ تـعـرـضـواـ لـهـ.

وفي مـكـةـ كـانـتـ الـعـلـمـيـاتـ الأـسـاسـيـةـ ذاتـ التـأـيـيرـ السـيـاسـيـ الـتـيـ قـامـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ بـهـاـ مـنـحـصـرـةـ فـيـ ثـلـاثـ: **الـعـلـمـيـةـ الـأـوـلـىـ:** الـبـنـاءـ الدـاخـلـيـ لـمـجـتمـعـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـذـلـكـ عـبـرـ وـسـائـلـ وـأـدـوـاتـ عـدـةـ، قـائـمـةـ كـلـهاـ عـلـىـ تـعـالـيمـ إـسـلامـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ، وـكـانـتـ ذاتـ طـبـيعـةـ روـحـيـةـ مـثـلـ (ـقـيـامـ اللـيـلـ بـالـصـلـادـةـ، وـتـلـاوـةـ الـقـرـآنـ)، وـكـانـ دـائـمـاـ هـنـاكـ تـذـكـيرـ بـأـحـوـالـ الـأـمـمـ السـابـقـةـ وـعـاقـبـةـ كـلـ مـنـ الـظـالـمـيـنـ وـالـمـسـلـمـيـنـ فـيـ كـلـ أـمـةـ، وـقـبـلـ ذـلـكـ وـمـعـهـ كـانـ تـرـسـيـخـ مـفـاهـيمـ الـعـقـيـدـةـ إـسـلامـيـةـ الصـحـيـحةـ بـصـفـائـهـ وـنـقـائـهـ وـتـمـايـزـهـاـ عـنـ الـعـقـائـدـ الـبـاطـلـةـ، مـعـ تـبـشـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ بـمـسـتـقـلـ مـمـلـوـءـ بـالـنـصـرـ وـالـتـمـكـنـ وـالـمـجـدـ.

وـقـدـ حـقـقـتـ هـذـهـ الـأـدـوـاتـ وـالـوـسـائـلـ نـجـاحـاـ مـنـقـطـعـ النـظـيرـ، مـمـكـنـ إـدـرـاكـ مـدـاهـ مـنـ إـدـرـاكـ حـجمـ النـجـاحـ الـذـيـ تـحـقـقـ فـيـ بـنـاءـ

الشخصية المسلمة لدى كل صاحب أو صاحبة ممن تربوا في العصر المكي، وحجم الإنجاز الذي حققه لأمة الإسلام سواء في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بعده، وتصفح سير وإنجازات أمثال أبي بكر الصديق أو عمر بن الخطاب أو حمزة بن عبد المطلب أو مصعب بن عمير أو أبي عبيدة بن الجراح أو عثمان أو على أو غيرهم.. يظهر ذلك بجلاء فكلهم أبناء العصر المكي للدعوة الإسلامية.

العملية الثانية: تحقيق أكبر قدر متاح من الحماية للمسلمين داخل المجتمع المكي الوثني المعادي للإسلام وال المسلمين، وفق الأعراف والفرص التي كانت سائدة آنذاك في هذا المجتمع، مثل كتمان الإيمان والإسرار بالعبادات الإسلامية بالنسبة للبعض، ومثل القبول أو طلب حماية بعض سادة قريش الوثنيين ممن تعاطفوا مع بعض المسلمين بسبب أواصر الدم والنسب، أو الصداقة أو بدوافع أخلاقية ذاتية، ومن أبرز الأمثلة على الحماية التي تمت بداعف النسب والدم حماية أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحماية عشيرة أبي بكر الصديق له، وكذا عشيرة عثمان ابن عفان له وغيرهم، ومن أبرز عمليات الحماية بدوافع أخلاقية حماية المطعم بن عدي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته من الطائف، وكذلك إجارة ابن الدغنة - سيد القارة - لأبي بكر الصديق عندما هم الأخير بالهجرة إلى الحبشة.

وفي إطار الرغبة في تحقيق هذه الحماية أيضاً تم استعمال أسلوب آخر هو أسلوب الهجرة، وفي هذا الإطار تمت عمليتا الهجرة للحبشة، الهجرة الأولى والهجرة الثانية، وهما في التحليل الأخير دخول في حماية ملك أجنبي عن مكة هو ملك الحبشة، الذي كان معروفاً عنه في ذلك الوقت أنه ملك عادل لا يظلم أحداً.

وقد حققت هذه الأدوات كلها نجاحاً ملحوظاً وإن تفاوتت درجاته، ورغم هذا ففي هذه المرحلة تم حبس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعشيرته من بني عبد المطلب وبني هاشم -سواء مسلميهم أو كافريهم المساندين للنبي- في شعب أبي طالب ثلاث سنوات لا يصلهم الطعام إلا تهريباً، كما تعرض الكثير من المسلمين للتعذيب طوال العشر السنوات التي دارت فيها الدعوة الإسلامية في مكة في شقها العلني، بل مات بعض المسلمين تحت التعذيب كما تعرض الكثيرون منهم لإصابات بالغة وخطيرة، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى، وأوجه حكمة الله في ذلك عديدة لكن أبرزها أمران:

1- أنه لو كان الدخول في الإسلام سهلاً هبئاً لدخل فيه كثيرون من غير الصادقين من الانتهازيين والوصوليين والمنافقين الأمر الذي كان سيضعف قدرة الجسد الإسلامي منذ بداية نشأته، وهو أمر ضار جداً في البداية، وبالعكس إذ لما حدث هذا بعد ذلك في المدينة بعدهما قوى الجسد الإسلامي أمكنه تجنب الآثار الضارة لهذه الظاهرة.

2- لما كان مقدراً أن يدخل الإسلام في نضال مسلح ضد الظلم والطغيان في مراحل تالية من تاريخه فإن مروره بهذه المرحلة من الاضطهاد كانت كفيلة بأن تدفع عنه فرية القول بأنه انتشر بالسيف، إذ لو كان انتشر بالسيف فكيف كان السيف مسؤولاً على أتباعه قتلاً وتعذيباً وتشريداً طوال عشر سنوات في مكة، ومع ذلك ظلوا يزدادون عدداً ولا يقلون، ولم يرفع واحد منهم سيفاً، ولم يكن المسلمون يملكون سيفاً، ومع ذلك أسلم الجسم الرئيس من قبيلتي المدينة المنورة الأوس والخرج في هذه المرحلة.

العملية الثالثة: سعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإقامة دولة الإسلام في بلد غير مكة، وذلك عبر دعوة كبار ورؤساء العديد من قبائل الجزيرة العربية للإسلام والتعاہد على النضال من أجل حماية دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لزعماء القبائل تتم في موسم الحج من كل عام بمكة، كما أنه ذهب بنفسه الشريفة للطائف حيث عرض دعوه على زعمائها فرفضوا الإسلام، وفي هذا الإطار دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم العديد من القبائل ورفض البعض بينما تردد آخرون، وفي النهاية قبل الأوس والخرج الإسلام وهم القبيلتان العربيتان اللتان كانتا تسكنا يثرب.

وبعد قبول أهل يثرب للدين الإسلامي انتقل المسلمون ليثرب التي أصبحت اسمها (المدينة المنورة) بانتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها لتبأ مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام، بدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إقامة الدولة في المدينة المنورة بإقامة المسجد النبوي الشريف الذي بإنشائه صار مقر الحكم ورمز الدولة الإسلامية، كما قام صلى الله عليه وآله وسلم بوضع أساس العلاقة بين المسلمين الذين جاءوا معه من مكة – والذين جرى تسميتهم بالمهاجرين – وبين مسلمي الأوس والخزرج سكان المدينة الأصليين – والذين تم تسميتهم بالأنصار أو أنصار رسول الله –، وكانت الأخوة بين هذين الفريقين هي أساس هذه العلاقة فيما سمي بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار..

فقد جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل واحد من المهاجرين أخيًّا لواحد من الأنصار، وجرى الشرع حينئذ على أنها كالشقيقين يتوارثان بعضهما البعض – إلى أن تم إلغاء هذا التوارث في نهاياتبعثة النبي مع استقرار تشريعات الميراث في شكلها النهائي –، فكان من ذلك أن آخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وآخى بين الزبير وشعب بن مالك، وآخى بين عثمان بن عفان وبين رجل من بني زريق بن سعد الزرقي رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ضرب الأنصار أروع ألوان الإيثار في هذه الأخوة حيث صار كل أنصارياً يقسم بيته وكل مزارعه أو أمواله مع أخيه المهاجر، حتى زوجاته فقد كان يسعى ليطلق نصفهن ليزوجها لأخيه المهاجر! وافق بعض المهاجرين على عرض الأنصار بشأن تقاسم الدور ولكنهم رفضوا تقاسم النخل، بل قبلوا العمل معاً على أن يصيروا شركاء في ما ينتج من ثمر، بينما رفض بعض المهاجرينأخذ شيء من الأنصار ك(عبد الرحمن بن عوف) الذي قال لأخيه الأنصارياً جزاكم الله خيراً وببارك الله لك في مالك وزوجك أريد فقط أن تدلني على السوق، وانطلق إلى السوق فباع واشترى حتى صار من كبار تجار المسلمين الآثرياء.

وفيما فعله المهاجرين والأنصار نزلت العديد من الآيات تثنى على سلوكهم هذا كقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبْدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:100]، وقال سبحانه بشأن المهاجرين فقط: {الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّفَقُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَأْنِي وَرَسُولُهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر:8].

ثم قال سبحانه بشأن الأنصار: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَايَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:9]، وفي المهاجرين والأنصار من كبار الصحابة وردَّ عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: "قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبَا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَةَ»" (رواه البخاري).

ولم تقتصر خطوات تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة على بناء المسجد والإخاء بين المهاجرين والأنصار فقط، بل كانت هناك خطوات أخرى لصهر بقية سكان المدينة من يهود ووثنيين في إطار مواطنة الدولة الإسلامية، ومن هنا تأتي أهمية الوثيقة المشهورة باسم وثيقة المدينة بينما أطلق عليها بعض الكتاب المعاصرین اسم (دستور المدينة)، وذلك لأنها بحق بمثابة نص دستوري هام جداً وفي منتهى الأهمية والتحضر والتقدم الدستوري، **وكان من أهم بنود هذه الوثيقة المعروفة في كتب التراث باسم (الصحيفة) أو (صحيفة المدينة) ما يلي:**

- 1- المسلمين من قريش ويثرب ومنتبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، أمّة واحدة من دون الناس.
- 2- هؤلاء المسلمين جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم ويفيدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- 3- إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً - أي المثقل بالديون - بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.

4- أن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دسيعة ظلم -أي ظلم كبير-، أو إثم أو عداوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيدبهم عليه جميماً ولو كان ولد أحدهم.

5- لا يقتل مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن.

6- ذمة الله واحدة، يجير عليهم أنناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

7- لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم والآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وإن من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

8- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.

9- يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتج -أي لا يهلك- إلا نفسه وأهل بيته.

10- إن على اليهود نفقاتهم وعلى المسلمين نفقاتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

11- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.

12- من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

13- إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإنه جار لمن يروجها" (انتهت أهم بنود هذه الوثيقة الدستورية). وكفى بها ترسيناً وتأسيسًا لأصول الحكم وحقوق وواجبات المواطنة وحرية الاعتقاد في دولة الإسلام الوليدة، التي بدأت لتوها تشق طريقها في غابة الوثنية في الجزيرة العربية بل وفي العالم.

وهكذا وضع النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم أساساً ثلاثة للدولة الناشئة:

- المسجد: كمقر للحكم ومركز للقيادة والإرشاد والتوجيه والتعليم والتفصيف.

- الإباء بين المهاجرين والأنصار.

- كتابة الصحيفة التي تنظم العلاقة بين كل مواطني المدينة بمختلف دياناتهم وقبائلهم وأعراقوهم، والتي أيضًا ترسخ لسلطة الشريعة الإسلامية مجسدة في سلطة محمد صلى الله عليه وآلـه وسلم.

ولكن هل هذه الأسس الثلاث كافية لبناء دولة النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم بشكل يكفل لها تحقيق كل أهدافها؟ طبعاً كان هناك أساس رابع باقي هو بناء الجيش، ورغم أن أتباع الرسول صلى الله عليه وآلـه وسلم كان معظمهم قد مارسوا القتال في جاهليتهم وعرفوا كيف يحملون السلاح ويستخدمونه في ظروف "لا يبقى فيها من لا يحمل سلاحاً"، ورغم أن الأنصار الذين قاموا بدولتـة الإسلام في المدينة على أكتافهم قد أعلنوا للرسول يوم بيعتهم في العقبة عن قدراتهم في القتال وبأسهم في الحروب، إلا أن الظروف الجديدة التي بدأ الإسلام يجتازها وتصاعد الموقف الحربي بينه وبين القوى الوثنية وخاصة في أعقاب الهجرة إلى المدينة، وتزول الآيات القرآنية تؤذن ببدء القتال المسلح..

كل ذلك حتم على الرسول صلى الله عليه وآلـه وسلم أن ينمـي هذه القدرات وأن يدفع أتباعـه إلى مزيد من التدريب والمهارة العسكرية في مواجهـة الأعداء الذين يحيطـون بالدولة الجديدة إحاطـة السوار بالمعصم، وراح الرسول القائد صلى الله عليه وآلـه وسلم طيلة العصر المدنـي يعمل دونـما تهاون على تعليم أتباعـه فنـون القتـال وتدريبـهم على استـعمال السـلاح، رافـعاً شعـاراً واضـحاً لا غـموضـ فيه وهو قوله تعالى: **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}**

وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنِفِّقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:60].

طريق الإسلام

المصادر: